بين السياسة والأدب :

انجلترا في مرآة حافظ

للشيخ محمد رجب البيومي

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

ونعود ثانية إلى حافظ ، فنذكر أنه استقبل السير غورست خليفة اللورد كرومر بقصيدة حافلة ، نطق فيها بآلام الشعب وآماله وعاوده السخط على العميد الراحل ، فسلقه بلسان حاد قاتل ، ثم انتقل به الحديث إلى عدو اللغة العربية « دنلوب » وما ارتكبته في دار المعارف من حماقة ونزق ، فقال .

رمى دارة المعارف بالرزايا ... وجاء بكل جبار عنيد
يدل بحوله ويتيه تيها ... ويعبث بالنهى عبث الوليد
فبدد شملها وأذال منها ... وصاح بها سبيلك أن تبيدي

فليت كرومرا قد دام فينا ... يطوق بالسلاسل كل جيد
لتنزع هذه الأكفان عنا ... ونبعث في العوالم من جديد

وقد كان شاعر النيل صادقاً حين عبر في هذه القصيدة عما يضمره المصريون للمحتلين من غضب وغيظ . وكيف تفرت في النفوس جراح دامية لا تكاد تندمل حتى يهيجها الشر مرة أخرى فتنفث ما بها من قيح وصديد ، اسمعه إذ يقول :

جراح في النفوس تغرن تترا ... وكن قد اندملن على صديد
إذا ما هاجهن أسى جديد ... هتكن سرائر القلب الجليد
فتح غضاضة التأميز عنا ... كفانا سائغ النيل السعيد
أرى أحداثكم ملكوا علينا ... عصر موارد العيش الرغيد
أكل موظف منكم قدير ... على التشريع في ظل العميد
اذ يقونا الرجاء فقد ظمئنا ... بعهد المصلحين إلى الورود

وإذا كان اللورد السابق قد ارتكب جرائمه في وضح النهار فإن السير غورست قد تقنع بالمكر والخديعة فأظهر كثيرا من البشر والابتسام ، بينما أخذ ينفث سمومه القاتلة في دامس الظلام ففرق بين العنصرين الوطنيين ، وأعاد النعرة الطائفية جذعة ، ثم اتفق مع أولياء الأمر على محاربة المخلصين من أشياع الحزب الوطني وما لبث المصريون أن عرفوا نيته الخبيثة ، فقام حافظ يندد بهذه اللاينة الماكرة ، وصاح في ذكرى مصطفى كامل يقول :

وللسياسة فينا كل آونة ... لون جديد ورأى ليس يحترم
بينا ترى جمرها تخشى ملامسه ... إذا به عند أس المصطلى فحم
تصغي لأصواتنا طورا لتخدعنا ... وتارة يزدهيها الكبر والصمم
فمن ملاينة أستارها خدع ... إلى مصالبة أستارها وهم
إذا سكتنا تناجوا تلك عادتهم ... وإن نطقنا تنادوا : فتنة عمم
ماذا يريدون لا قرت عيونهم ... إن الكنانة لا يطوى لها علم
قالوا لقد ظلموا بالحق أنفسهم ... والله يعلم أن الظالمين هم

وأنت ترى شاعر النيل في إبيانه المتقدمة غير قاس في هجومه وله العذر في ذلك ، فقد كان قانون المطبوعات قد بعث من مرقده إبان ذلك ، فقيد حرية الرأي والكتابة ، وعملت وزارة بطرس غالي باشا — بإيماز من غورست — على محاربة الكرام الكاتبين والشعراء النابهين من أبناء الوطن المخلصين ، ولم تفلح الضجة الكبيرة التي قام بها الشعب في وجه هذا المشروع الخطير ، فاضطر حافظ إلى اللاينة قليلا بعد أن أصبح القانون ضربة لازب ، وبعد أن حاربه في جد وصرامة فقال .

لمعرفة الآخرين لذلك الصنيع .

تلك هي نظرة القرآن في موقفه من حديث القوم عن الأساطير ألممت بها وشرحتها كما فهمتها وأرجو أن أكون في هذا الفهم من الموفقين .

والآن أفلا يزال الأحمدان الفاضلان عند رأيهما من أنا نستحق أن نتهم بالكفر ونرمى بالزندقة ونوصم بالإلحاد .

اللهم إنك لتعلم أنا نحرص على فقه كتابك المعجز ووحيك العربي المبين .

واللهم إنك لتعلم أنا قلنا ما قلنا طلباً للفهم الدقيق لآياتك وحباً في الوقوف على سر من أسرار إعجازك .

واللهم إنك لتعلم أنا نؤمن إيماناً قوياً جازماً بصدق قولك المنزل على نبيك الرسل [ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون فتول عنهم حتى حين وأبصرهم فسوف يبصرون] .

ولقد صدقت يا الله فانتصر الحق وآمن بالرأي من لم يؤمن به من قبل ، والسلام .

محمد أحمد خلف الله
كلية الآداب — جامعة فؤاد

كانت تواسينا على آلامنا صحف إذا نزل البلاء وأطبقا
فإذا دعوت الدمع فاستعصى بكت عنا أسى حتى تفيض وتشرقا
كانت لنا يوم الشدائد أسهما ترمى بها وسوابقا عند اللقا
مالى أنوح على الصحافة جازعا ماذا ألم بها وماذا أحدقا
قصوا حواشيها وظنوا أنهم أمنوا صواعقها فكانت أصعقا
رأوا بحاذقهم يكيد لها بما يثنى عزائمها فكانت أحذقا
كانت صماما للنفوس إذا غلت فيها الهموم وأوشكت أن تزهقا
كم نفست عن صدر حر واجد لولا الصمام من الأسى لتمزقا

وفى النهاية قد لجأ حافظ إلى الصراحة التامة فى موقفه بعد أن عيل صبره ، فحذر المصريين من بسمات خورست وندد بوعوده الكاذبة ، وارتاب فى ملاينة هذا الثعلب الماكر فهو يقول فى شأنه .

فكم ضحك العميد على لحانا وغر سراتنا منه ابتسام
فلا تثقوا بوعد القوم يوماً فإن سحاب سادتهم جهام
وخافوهم إذا لانوا فإنى أرى السواس ليس لهم ذمام
فما سادوا بمعجزة علينا ولكن فى صفوفهم انضمام

وقد أراد الله لمصر بعض الخير فمات السير خورست واستراح الشعب من حبائله الصائدة ، ولكن حافظا لم ينتظر فى دنيا الحرية كثيراً بعده حتى يواصل حملاته العادلة ، بل انتقل إلى العمل فى دار الكتب المصرية ، وللوظيفة قيود تكبل بها الألسنة الصارخة لا سيما إذا كان صاحبها ذا ضرورة إلى ما تدره عليه من أجر ، فألجم الشاعر فاه عن السياسة ، وحطم قيثارته الشادية ، وتلك خسارة فادحة غرمها حافظ أكبر غرم ، كما قابلها عشاق أدبه الرفيع بهمّ زائد وأسف وجيع .

وقد يقول قائل : لماذا أمسك حافظ وحده عن النظم السياسى كموظف في الحكومة ؟ مع أن زملاءه الموظفين من الشعراء النابهين كعبد الحليم المصرى ، وأحمد نسيم ، ومحمد الهراوى ، وعبد المطلب قد واصلوا الغزف على أوتارهم السياسية ، دون أن يقف فى طريقهم واقف ؟ ! وأنا أقول إن الرقابة كانت موجهة إليه أكثر من غيره لما يعرفه أولو الأمر من تأثيره القوى فى الجمهور ، وإلا فهل كان من المعقول أن تندلع الثورة المصرية ، وينفى الزعماء ، ويعتقل الشباب ، وتنشق الكلمة وتختلف الأحزاب ؛ وشاعر النيل ساكت عن ذلك كله بإرادته ومشيئته ! كلا ثم كلا ! بل إنه نظم قصائد حية ، ونشرها غفلا من إمضائه كما وزعت بعض المنشورات السياسية تحمل قلائده اللامعة ، وجميع ما قاله فى هذه الآونة لم ينشر على الناس عامة إلا بعد استقرار الحالة فى مصر ، وقد أشار إلى ذلك ديوانه فى مفتتح بعض القصائد ، كما أنه كان ينتهز الظروف التى تحميه من العقاب فينفض ما فى وعائه ، واقرأ قصيدته التى قالها فى تهنئة سعد زغلول بنجاته سنة ١٩٢٤ فستجده يقول .

لا تقرب التامیز واحذر ماءه مهما بدا لك أنه مسموم
الكيد ممزوج بأصفى مائه والختل فيه مذوب مصقول
كم وارد يا سعد قبلك ماءه قد عاد منه وفى الفؤاد غليل
القوم قد ملكوا عنان زمانهم ولهم روايات به وفصول
ولهم أحابيل إذا ألقوا بها قنصوا النهى فأسيرهم مخبول
ولكل لفظ فى المعاجم عندهم معنى يقال بأنه معقول
نصلت سياستهم وحال صباغها ولكل كاذبة الخضاب نصول
جمعوا عقاقير الدواء وركبوا ما ركبوه وعندك التحليل

وهذه نفثة حارة ترى لها نظائر عديدة فى مراثيه الخالدة لزعماء النهضة المصرية ، وهى — على كل — قد أفصحت عن لوائحه الكظيمة ، وإن لم تكن الغرض الأول الذى قصد إليه الشاعر ، وإنما مهد لها فأحسن التمهيد .

هكذا وقد مكث حافظ فى منصبه الحكومى عشرين عاماً خسر فيها الشعر السياسى كثيراً من درره ، ثم أحيل إلى المعاش قبل وفاته بأربعة أشهر فقط ، وما كاد يستنشق نسيم الحرية حتى نظم فى هذه الأيام المعدودة قصائد عاصرة من قوله البليغ ، ندد فيها بأساليب الدخلاء ، وصنائعهم من المصريين ، وقد بلغت إحدى قصائده مائتى بيت !! ولو مد الله فى أجله لبل الصدى ونقع الغليل على أنه — رحمه الله — لم يتمهل مطلقاً فى شعره الأخير ، بل كان ينظمه فى سرعة تشبه الارتجال ، كقوله فى مخاطبة المندوب السامى .

ألم ترق الطريق إلى كياد تصيد البط بؤس العالمينا
ألم تلمح دموع الناس تجرى من البلوى ألم تسمع أنينا